﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الأنبياء: 5 - 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ تضارُبِ أقوالِ الظّالمين في شأن القرآن وتناقُضِها

لمّا سبق ذِكْرُ اتِّهام الظّالمين القرآنَ بأنَّه سحرٌ؛ ناسبَ أن تُذْكر بقيَّةُ الاتّهاماتِ الصّادرةِ عنهم في حقِّ القرآن، وهي: أضغاثُ أحلام، ومُفترى، وشعرٌ؛ لبيانِ تناقضِهم وتضاربِ أقوالهم في وصف القرآن، وهو ما يدلُّ على أنَّهم في أمرٍ مختلفٍ، وهذا التَّضاربُ يدلُّ على أنَّه ليس سحرًا كما زعموا، فهو انتقالٌ من ذكرِ اتِّهام القرآنِ بتهمةٍ، إلى إبطالِها بتُهمٍ أخرى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: مركّب إضافيٌّ مُكوّنٌ من لفظِ ﴿أَضْغَٰثُ﴾، و﴿أَحْلَٰمٍ﴾، أمّا ﴿أَضْغَٰثُ﴾ فهي جمعُ ضِغْث، والضِّغْثُ منَ الشّيء ما كان مختلِطًا، ومنه الضّغثُ منَ الأعواد يابسِها ورَطبِها، "والضِّغثُ منَ الخَبَر والأمر: ما كانَ مختلِطاً لا حَقيقَةَ لَهُ"[1]، والضِّغثُ: قبضةُ رَيحانٍ، أو حشيشٍ أو قُضبانٍ، أي: عيدان، وجمعُه: أضغاثٌ، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص:44][2]، والضِّغث: التباسُ الشَّيء بعضِه ببَعض، وكلامٌ ضَغْث، وضَغَثٌ: لا خيرَ فيهِ، والضِّغث: الحِلْمُ الَّذي لا تأويلَ لَهُ ولا خيرَ فيه، والجمع: أضغاث[3].

و﴿أَحْلَٰمٍ﴾: جمع حُلُم، وحُلْم: ما يُرى في المنام من تهاويلَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضغث).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضغث).
(3) ابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم، والرّازيّ اللّغويّ، مختار الصّحاح: (ضغث).

وتخاليطَ، مرجعُها للشّيطان أو لحديث النّفس، وأضغاثُ أحلام: "الأحلامُ المُختلطةُ التي لا يتبيّن حقائقَها"[1].

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: فرى فلانٌ الكَذبَ يفريه ويَفتَريه، إذا اختَلقه، وافتَراهُ على وزن افتعلَه، أي: اختَلَقَهُ واصطنعه، والفِريَةُ، منَ الكَذِب، ومِنه قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يُونس: 38] أي: اختلقه، والفِريَةُ: الكَذِبُ والقَذفُ، والفِرَى: جمعُ فِريَة، وهي الكِذْبَةُ[2]، ومرادُ الكفّارِ أنَّه ﷺ افترى القرآنَ من عنده، ونسبَه إلى اللّه تعالى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كـثرةُ الاتّهاماتِ وتضاربُها دليلُ عُـقـمِ الـفِـكْـرِ وانعدامِ البصيرةِ

بيَّنتِ الآيتان تضاربَ أقوالِ المشركين في وصفِ القرآن الكريم، فلم يَستقرّوا على قول، فتقدَّم ذِكْرُ وصفِهم بأنَّه سِحْر، ثمّ زعموا كاذبين أنَّه أخلاطُ أحلام، وأنَّه مفترًى على اللّه تعالى، أي: ادّعاه لنفسه، ثمّ نَسبَه لربّه، ثمّ زعموا أنَّه شِعرٌ، ثمّ انتهى بهمُ الأمرُ أن طالبوا بالدَّليل والحُجّة على أنَّه من عند اللّه تعالى، وهم يُريدون بالآية المادّيةَ المحسوسةَ، فبيَّنتِ الآيةُ أنَّ عدمَ إيمانِ السّابقين أنْهاهم إلى عذابٍ أليم، واللّهُ تعالى أكرمَ نبيَّه بأن لا يستأصلَ قومَه، وأنَّ مقتضى الرّحمةِ أن لا يُنزلَ آيةً محسوسةً، لِما يترتّبُ عليها منِ الاستئصال.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ونُكْتَةُ تَكرارِها في سياقٍ واحدٍ:

شـأنُ المُبطِلِ المُباهتِ أن يَتردَّدَ في حُجَّتِه وأن يَتلجلجَ في باطِلِه

وردت أداةُ (بل) في الآية ثلاثَ مرّات؛ الأولى: للإضراب الانتقاليِّ من حكاية قول فريقٍ منهم: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾، إلى حكاية قولِ فريقٍ آخرَ منهم: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾، فضميرُ ﴿قَالُواْ﴾ لجماعة المُشركين لا لخصوصِ القائلين الأوّلين.

(1) الرّاغب، المفردات: (ضغث).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّازيّ اللّغويّ، مختار الصحاح: (فَرى).

والثّانيةُ والثّالثةُ: للإضراب الانتقاليّ، ويجوزُ فيه أن يكون انتقالًا من كلام مَن قال: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ إلى ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إلى ﴿شَاعِرٌ﴾، ويجوزُ أن يكون انتقالًا آخرَ، أي: بل قالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، بل قالوا: ﴿شَاعِرٌ﴾، والفرقُ بينَهما: أنَّ الأوَّل إضرابٌ عن قول الفريق القائل: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ فيكون الإضرابُ الثّالثُ والرّابعُ منسوبَين لهذا الفريق، والثّاني إضرابٌ يومِئ بوجودِ فريقٍ ثالثٍ فرابعٍ، وحُذِفَ فعلُ القولِ لدلالة القول الأوّل عليهما، ونُكْتَةُ الإضراب الإيذانُ باضطرابِهم وتضاربِ أقوالهم، وهذا الاضطرابُ ناشئٌ عن تردُّدِهم ممّا ينتحلونه منَ الاعتلال عنِ القرآن، وذلك شأنُ المُبطلِ المُباهتِ، أن يتردَّد في حُجَّته، كما قيل: الباطل لَجْلَجٌ، أي: مُلْتبِسٌ مُتَرَدَّدٌ فيه[1]، وهذا الاضطرابُ شأنُ المُبطل المَحجوجِ؛ فإنَّه لا يزال يَتردَّدُ بين باطلٍ وأبطلَ، ويتذَبْذَب بين فاسدٍ وأفسدَ[2].

ويجوزُ أن يكونَ الكلُّ منَ اللّه تنزيلًا لأقوالِهم في دَرَج الفساد؛ لأنَّ كونَه شعرًا أبعدُ من كونِه مفترًى؛ لأنَّه مشحون بالحقائقِ والحِكَم، وليس فيه ما يُناسبُ قولَ الشّعراء، وهو من كونِه أحلامًا؛ لأنَّه مشتَمِلٌ على مُغيّباتٍ كثيرةٍ طابقتِ الواقعَ، والمُفترَى لا يكون كذلك، بخلاف الأحلام؛ ولأنّهم جرّبوا رسولَ اللّه ﷺ نيِّفًا وأربعين سنةً وما سمعوا منه كَذِبًا قطّ، وهو أبعدُ من كونه سحرًا؛ لأنَّه يُجانسُه من حيثُ إنَّهما منَ الخوارقِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في اختيار مُفردةِ ﴿أَضْغَٰثُ﴾:

إذا احتشدَ الكُرهُ بالَغَ صاحبُه في الذَّمِّ

اختارَ النَّظمُ الكريم مفردةَ ﴿أَضْغَٰثُ﴾، والضِّغثُ: الحُزمةُ والباقةُ منَ الشّيء، وأضغاثُ أحلام: أخلاطُ أحلامٍ، أي ما التبس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 15 - 16.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 10.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 103، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 46.

بعضُها ببعضٍ[1]، ونُكْتَةُ الاختيارِ أنَّ المشركين أرادوا تشبيهَ القرآنِ بأضغاث الأحلام، وهي "استعارةٌ تمثيليَّةٌ لطيفةٌ؛ فقد شبَّه اختلاطَ الأحلامِ وما فيها من ضروبٍ مختلفةٍ، بالحُزمة المختلطةِ منَ الحشيش والنَّبت، لا تَناسُبَ بينها"[2].

غرضُ جمعِ ﴿أَضْغَٰثُ﴾:

جَمعُ الأضغاثِ لِيُقابِلَ جمعَ الموضوعاتِ

حكى القرآن الكريم عن شُبهةِ المعاندين من خلال استعمال لفظ ﴿أَضْغَٰثُ﴾، دون: (ضِغْثٌ حُلُم)؛ وذلك باعتبارِهم أنّ كلّ موضوع من موضوعات القرآن ضِغثًا وأخلاطًا، وهذا تشنيعٌ منهم وتخبّطٌ منهم في وصف القرآن الكريم، والعياذُ باللّه تعالى.

دلالةُ إضافةِ الأضغاثِ إلى الأحلام، وحذْفِ المسنَدِ إليه:

زيادةُ تشنيعِ ذَمِّ القرآنِ الكريمِ

إضافةُ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ إلى ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ بمعنى (من)، أي: أضغاثٌ مِن أحلام[3]، وهي من إضافة الموصوفِ للصّفة، أي: أحلامٌ أضغاثٌ، أي: مختلطةٌ، وقيل: "من إضافة الخاصِّ إلى العامّ"، فالأحلامُ قسمان: حقيقيّةٌ وأضغاثٌ، فأضاف أضغاث، وهي خاصٌّ، على أحلام، وهي عامّ، إضافةً بمعنى (مِن)[4]، والمقصودُ زيادةٌ في التَّشنيع والتَّهويل.

وقد حُذف المسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، والتّقديرُ: (هو أضغاثُ أحلام)، أي: القرآن؛ لدلالة السّياقِ عليه، وللإيماءِ إلى أنَّها كلمةٌ سائرةٌ على ألسنتِهم.

دلالةُ التّعبير بمُفردةِ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ومرجعُ الضّميرِ فيه:

الاتِّهامُ بالافتراءِ دليلُ الزَّعزعةِ في الافتراءِ

جاءت صيغةُ فعلِ (افترى) على وزن (افتعل)؛ للدّلالةِ على ادِّعاء الشَّيء بأنَّه مُختلَقٌ، والافتراءُ الذي أرادوا إلصاقَه بالقرآن الكريم؛ هو الكلامُ الكذبُ الذي لا أصلَ له، المنسوبُ إلى اللّه تعالى، فهذا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضغث)، وابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/ 328.
(2) أحمد الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف ﷺ في القرآن، ص: 103.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 114.
(4) ينظر: البروسويّ، روح البيان: 5/ 453.

الفريق أراد زعزعةَ مَن آمَن بالقرآنِ، كأنّه قيل: هذا القرآنُ وإن بدا صدقًا وحقًّا إلّا أنَّه مُفترًى، فإن خاب صدُّ النّاس عنه بوصفه سحرًا أو أضغاثَ أحلامٍ، أصاب هذا ظنًّا منهم أنَّهم يُحسنون صُنعًا، والضّميرُ في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، وهو الفاعلُ، يعودُ إلى النَّبيِّ ﷺ، والضّميرُ الثّاني - وهو الهاء - متّصلٌ، يعودُ على القرآن، في محلّ نصبٍ مفعول.

نُكْتَةُ الاختلافِ في التَّعبيرِ بينَ الاسميّةِ والفعليّةِ في جُملِ الإضرابِ:

كـثرةُ الطَّـعـونِ تـدلُّ عـلى أنَّ الـغـايـةَ هي الـطَّـعـنُ لا الـوُصـولُ إلى الحقِّ

يُلحظُ أنَّ التّعبير عن تشبيه القرآنِ بأضغاث الأحلام جاء بجملةٍ اسميَّةٍ على تقديرِ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: (هو أضغاث أحلام)، فلم يُقَل: (رأى أضغاث أحلام)، بينما في وصف القرآن بالمُفترى جاء بالفعليَّة ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ولم يقل: (مفترًى)، وفي الجملةِ التي بعدها جاء بالاسميَّة ﴿هُوَ شَاعِرٞ﴾، فلم يقل: (أتى بشعرٍ)؛ وهذا التَّنوّعُ في الطَّعنِ دليلٌ على تخبُّطِهم في الوصفِ، وارتفاعِ وتيرةِ الحسدِ فيهم، إذِ الغايةُ هي الطَّعنُ بقطع النَّظرِ عن أداته.

نُكْتَةُ اختلافِ التَّعبيرِ في حذفِ المسنَدِ إليه وذكرِه:

دقـائـقُ الـنَّـظـمِ كـاشـفـةٌ عـن دقـائـقِ الـمـعـاني الـخـفـيَّـةِ في الصَّدر

حُذفَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾، بينما ذُكر في قوله تعالى: ﴿هُوَ شَاعِرٞ﴾؛ وذلك لإظهارِ أثرِ المسنَدِ إليه في المسنَدِ، فهم أرادوا بيانَ أنَّه شاعرٌ لا يعدو أن يكون شيئًا آخرَ، فكأنَّهم قالوا: ما هو إلّا شاعرٌ، والشّاعرُ لا يكون إلّا آتيًا بالألفاظِ والنَّظم، فهو تقليلٌ منهم لشأنِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتمحيضٌ لطعنهم فيه ﷺ، دونَ التَّعرّض للقرآنِ الكريم، أمّا في قولهم: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ بحذف المسنَدِ إليه؛ فلِجريانِها مجرَى الكلمةِ السّائرةِ، ولأنَّه لم يكن المقصودُ التَّعريضَ بشخصه، بقدر ما هو طعنٌ بالوحي.

أكـثرُ الـطَّـعـونِ رواجًـا الـسِّـحـرُ، فـالأضـغـاثُ، فـالافـتـراءُ، فالشِّعرُ

سِرُّ تقديمِ ذِكْرِ السِّحرِ، فالأضغاثِ، فالافتراءِ، فشاعرٍ:

بدأتِ الآيةُ بذكرِ ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾، ثمّ ثنَّت بذِكْر ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾، ثمّ

بقولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ثمّ ﴿هُوَ شَاعِرٞ﴾، وهذا التَّرتيبُ مبنيٌّ على ملاحظةِ أنَّ أكثرَ الأوصافِ انتشارًا وقبولًا لدى الطّاعنين هو وصفُه بـ (السّحر).

نُكْتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَاعِرٞ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿شَاعِرٞ﴾ يقصدون التَّقليل من شأنِ النَّبيِّ ﷺ، فكأنَّهم يقولون: (ما هو إلّا شاعرٌ، فكيف يقوَى على ادِّعاء أنَّه يُوحَى إليه منَ اللّه تعالى).

نوعُ الفاءِ واللّامِ في ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾، ودلالتُهما:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ إمّا أن تكونَ للتّفريع، والجملةُ متفرّعةٌ على ما تقدّم؛ أي: بناءً على ذلك ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ بآيةٍ محسوسةٍ، ومعجزةٍ ملموسةٍ، وإمّا أن تكونَ فصيحةً؛ لأنّها أفصحت عن شرطٍ مقدّرٍ، كأنّه قيل: إن لم يكن كما قلنا؛ ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ بآية لا يتطرّقُ إليها شيءٌ من هذه الاحتمالاتِ، واللّامُ في قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ هي لامُ الأمرِ، ودلَّ الأمرُ على غرضِه الحقيقيِّ؛ وهو طلبُ الإتيانِ بمعجزةٍ، وإنَّما قصدوا بذلك التّعجيزَ لا إثباتَ الحَقِّ المبينِ.

الفاءُ للتّفريعِ، أو للإفصاحِ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، واللّامُ للأمر

نُكْتَةُ الاختلافِ في التَّعبيرِ بإسنادِ الإتيانِ وإسنادِ الإرسالِ:

أُسنِدَ فعلُ الإتيانِ إلى النّبيِّ ﷺ ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾، وأُسندَ فعلُ الإرسال إلى غير مسمًّى، والمُرادُ اللّهُ تعالى: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ لبيانِ اعترافِهم بالرِّسالات السّابقةِ، وعدمِ اعترافِهم برسالة النَّبيِّ ﷺ، وهذا الاعترافُ منهم بالرّسالاتِ السّابقةِ دليلٌ على اعتقادِهم في أنَّ اللّه يُرسل رُسلًا، لكنّ الاختلافَ في طبيعة المعجزةِ، أتكون محسوسةً كما هو شأنُ السّابقين، أو معقولةً كما هو القرآنُ الكريمُ؟ كما أنَّ فيه "إيماءً إلى أنَّ ما أتى به ﷺ من عنده، وما أتى به الأوّلون منَ اللّه ﷻ، ففيه تعريضٌ مناسبٌ لِما قبْلَه منَ الافتراء"[1].

المشركون يَعترفون بإرسال الرُّسلِ لكنَّهم يُنكرون نبوّةَ محمَّدٍ ﷺ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 241، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 12.

نُكتةُ ذكْرِ المفعولِ به:

العاقلُ الفَطِنُ لا يكترثُ بكلام المُبطلين

ذُكرَ المفعولُ به في ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ دون أن يقولوا: (فليأتِ بآية)؛ وذلك لبيانِ أنَّهم المقصودون بالإتيان، وهو ما يومِئ إلى اعتزازِهم بأنفسِهم وتكبُّرِهم، فهم يريدون الآيةَ أن تكونَ لهم على وجه الخصوص، لا أن تكونَ عامَّةً للجميعِ، بالإضافة إلى أنَّهم يُريدون آيةً تُقنعُهم هم دونَ غيرِهم؛ فإنْ أتى بآيةٍ ولم يقنَعوا بها فلن تكونَ آيةً مقبولةً، وهكذا دواليك، فكان غرضُ الأمرِ التَّعجيزَ لا معرفةَ الحَقّ والاعترافَ به، فلسانُ حالِهم لسانُ قومِ فرعون: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: 132].

معنَى الباء، والغرضُ من تنكيرِ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الباءُ في لفظِ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ للتّعديةِ؛ لأنَّ فعلَ الإتيان لازمٌ؛ فيتعدَّى بالباء، ونُكِّر لفظُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ للعمومِ، أي: أيَّ آيةٍ أتيتَ بها على وفق آياتِ المتقدِّمين فهي المطلوبةُ.

فائدةُ التّشبيه وغرَضُه:

التَّقليدُ آفةٌ ابتُلِيَ بها أهلُ الضَّلال فصدَّهم عنِ الحقِّ المبينِ

التَّشبيهُ في قول الله تعالى على لسان المشركين ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يُرادُ به تشبيهُ الآية المطلوبةِ بالآيات المُرسَلِ بها الأوّلون، من حيث كونُها محسوسةً مرئيّةً، لا أن تكونَ معقولةً مسموعةً، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين لم يَقبلوا بما خصَّهمُ الله تعالى به من خصوصيّة الرّسالةِ الخاتمةِ، بل أرادوا تقليدَ غيرِهم، وكأنَّ التَّقليدَ طبعٌ أصيلٌ في المناوئين للحقِّ، الخارجين عن نهج الصِّدق.

نوعُ (ما) ومعناها:

احتمالُ (ما) للموصوليَّةِ أوِ المصدريَّةِ بقصْدِ العُمومِ

أداةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، والمعنى: كالذي أُرسل به الأوّلون، والعائدُ محذوفٌ، ويصِحُّ أن تكون مصدريّةً، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: فليأتنا بآيةٍ إتيانًا كائنًا

مثلَ إرسالِ الأوَّلين[1]، وجاء التَّعبيرُ بها لاحتمالِها معنَى الموصوليَّةِ والمصدريَّةِ، ونصُّها على العمومِ، ولو قالوا: (كالذي أرسل به الأولون)، أو: (كإرسال الأولين)، لظُنَّ أنَّهم يُريدون آيةً بعينِها، ذاتَ صفةٍ خاصّةٍ، وهم يُريدون أيَّ آيةٍ تُشابِهُ آياتِ المُتقدِّمين.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل للمفعولِ:

يَتحاشى أهلُ الباطلِ ذِكرَ الحَقّ

بُنِيَ فعلُ ﴿أُرْسِلَ﴾ للمفعولِ؛ وذلك لمعرفة المُرْسِلِ ﷺ، فالإيجازُ مقدَّمٌ على الإطنابِ، إلّا إن كان هناكَ نُكْتَةٌ، كما أنَّه لو قالوا: (كما أرسلَ اللهُ الأوّلين)؛ لكان فيه إظهارٌ صريحٌ لاسم اللّه الجليلِ، الذي يُلزِمُهم الإيمانَ به، فهمُ ابتعدوا بأنفسِهم عن ذكرِه؛ للابتعادِ عن ظهور اسمِه تعالى.

معنَى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للاستغراق العُموميِّ؛ لتشملَ معجزةَ كلِّ رسولٍ، ويُؤكِّدُ ذلك تنكيرُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ والإتيانُ بأداة (ما)، فكلُّها دالٌّ على العمومِ.

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

سنَّةُ الله واحدةٌ في اللّاحقين والسّابقين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ﴾ باعتبارِه جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، فبعدَ أن طلبوا الآيةَ التي تُشابه آياتِ المُتقدِّمين؛ حَسُنَ بيانُ موقفِ المُتقدِّمين منَ الآيات التي جاء بها المُرسلون؟ فكان الجوابُ: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ﴾؛ فهي من باب الاستئنافِ البيانيّ، فالكلامُ "مستأنَفٌ مسوقٌ لتكذيبِهم فيما يُنبئُ عنه خاتمةُ مقالِهم منَ الوعد الضِّمنيّ بالإيمان، عند إتيان الآيةِ المُقترحةِ"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 55، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 454.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 55، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 12.

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

عـمـومُ نـفْـيِ الإيـمـانِ عـمَّـن قبلَهم

﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ للنَّفي، وقد نُفيَ بها دونَ أدوات النَّفي الأخرى؛ فلم يقل: (لم تُؤمن قبلَهم)؛ لعموم نفْيِ الإيمان عمَّن قبلَهم، ممَّن لَحِقَهمُ الإهلاكُ.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الفعل:

الحذفُ للإيجاز، وهو سِرُّ الإعجاز

حُذِف متعلّقُ الفعل من قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾؛ لأنَّه معلومٌ منَ السّياق، فالإيجازُ هو الأولى، أي: ما آمنت بما جاء به الرّسلُ، لأنّ الإيمانَ الذي دعا إليه كلُّ الرّسلِ واحدٌ.

فائدةُ ذِكْرِ الظّرفِ:

استغـراقُ زمـانِ القَبْليَّة كلِّه

ذُكِر الظَّرفُ المُضافُ إلى الضَّمير العائدِ على المشركين ﴿قَبْلَهُم﴾؛ لاستغراق زمانِ القَبْليَّة كلِّه، فيدخلُ فيه كلُّ قومٍ قبلَ المشركين، أُرسل إليهم رسولٌ بآيةٍ، ولم يؤمنوا بها.

فائدةُ ﴿مِّن﴾، وتنكيرِ ﴿قَرْيَةٍ﴾:

جاء حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ لتأكيد العمومِ المُستفادِ منَ النّفي والتّنكير، أي: أيُّ قريةٍ أُرسلَ إليها رسولٌ فلم تؤمن به.

نُكْتَةُ المَجازِ:

إهلاكُ الله يَعمُّ القريةَ كلَّها، ولا يَخُصُّ أهلَها

المقصودُ بـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهلُ القرية، وأُطلِقتِ القريةُ دونَ أن يقول: (ما آمن أهل قرية)؛ لبيانِ أنَّ الإهلاك النّازلَ يصلُ القريةَ كلَّها، فلا يَسْلَمُ شيءٌ منه؛ فهذا من باب المجازِ بالحذفِ، أو أن يكونَ من باب المجازِ المُرْسلِ، فأطْلَقَ المَحلَّ وأراد الحالّين فيه، وهم أهلُها.

فائدةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العَظَمة:

التَّلويحُ بعصا التَّهديدِ رادعٌ زاجرٌ

أُسنِدَ فعلُ الإهلاكِ إلى ضمير العَظَمة في قولِه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَآ﴾؛ للتَّهويل والتَّعظيم، فالإهلاكُ الصّادرُ عنِ الله تعالى

معنًى ولفظًا له منَ الهيبةِ والجلالِ والتَّرهيب ما لا يكون لو قيل: (أُهلِكَت)، ففيه تلويحٌ بعصا التَّهديدِ.

نُكْتَةُ مجيءِ الصّفة فعلًا لا اسمًا:

تعليلُ الإهلاكِ وبيانُ فضلِ الله على العِبادِ

جاء قولُه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ صفةً للفظِ ﴿قَرْيَةٍ﴾، وهي في محلّ رفعٍ على المَحلّ لقرية؛ لأنَّ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ فاعلٌ، أو في محلّ جرٍّ للفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾، ونُكْتَةُ ذلك تعليلُ الإهلاك؛ لأنَّه نصٌّ على أنَّ الإهلاكَ كان بسبب كفرِها، أي: كان الإهلاكُ بعد الكفر ورفضِ الإيمان، وهو ما تُفيده الجملةُ الفعليَّةُ، كما أنَّ فيه بيانًا لرحمةِ اللّه بعباده.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

الجحودُ لا يُعالجُه الدّليلُ وكثرتُه، إنّما يعالجُه العقابُ وصرامتُه

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لإنكارِ ظنِّ أن يقعَ منهم إيمانٌ بخلاف ما كان من كُفرِ مَن قبلَهم، أي: لا يؤمنون بحالٍ، والمعنَى: إن لم تؤمن أُمّةٌ منَ الأُمم المُهلَكةِ عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمنُ هؤلاء لو أُعطوا ما اقترحوا؟ فالجحودُ لا يعالجُه الدّليلُ وكثرتُه، إنّما يعالجه العقابُ وصرامتُه[1].

بلاغةُ الفاءِ وأثرُها في الفصل:

الفاءُ إمّا للعطفِ على محذوفٍ، أو للتّفريعِ على مذكورٍ

قولُه تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا جعلنا الفاءَ عاطفةً على محذوفٍ مُقدَّرٍ بعد الهمزة، فالجملةُ مفصولةٌ؛ لِما بينَها وبين الجملةِ السّابقةِ من كمال الانقطاع؛ فالأولى خبريَّةٌ نافيةٌ، والثّانيةُ إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ، ويكونُ التَّقديرُ: (أكَفرَ الأوّلون فهم يؤمنون؟!).

أو تكونُ الفاء للتَّفريع، حيثُ فُرِّعت جملةُ ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ على جملةِ ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: (فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما اقترحوا؛ كما لم يؤمنِ الذين من قبلهم)؛ الذين جعلوهم مثالًا في قولهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، وهذا أخْذٌ لهم بلازمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4831.

قولِهم[1]، على أنّ الفاء مقيِّدةٌ لترتيب إنكار وقوعِ إيمانِهم على عدم إيمانِ الأوّلين، وإنَّما قُدِّمت عليها الهمزةُ لاقتضائها الصَّدارةَ[2].

نُكْتَةُ تقديمِ المسنَد إليه على المسنَدِ الفعليّ:

توكيدُ حُكمِ نفْيِ إيمانِ مَن أصرَّ على الجُحودِ

قُدِّم المُسندُ إليه على المسنَدِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لتقوية حُكمِ الإسناد وتأكيدِه، فالإنكارُ والنَّفيُ انصبَّ على أن يكونَ منهم على وجه الخصوصِ، معَ التَّشويق للخبر بعد ذِكْر حالِ مَن تقدّمهم منَ الأقوام المُهلَكين، إلى جانب رعايةِ الفاصلةِ، وهي مناسبةٌ لفظيّةٌ تابعةٌ للمناسبةِ المعنويّةِ.

غرَضُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

قيمُ الهدايةِ في مضامين الفصاحةِ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وقد انصبّ عليه الإنكارُ بالاستفهام، والمضارعيّة تُفيدُ التّجدّدَ، فكأنَّه نفَى تجدّدَ إيمانِهم، وأنكر أن يكون منهم إيمانٌ، ففيه توبيخٌ وتقريعٌ بليغٌ، مع همسٍ وإيماءٍ لمَن ألقى السَّمعَ وأقبلَ على التَّفكير الذي يقودُه إلى الإيمان.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

لم يُذْكَرْ متعلّقُ فعلِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ وذلك إمّا لتنزيلِه منزلةَ اللّازم، وإمّا على تقدير محذوفٍ خاصٍّ، أي: أفَهُم يؤمنون بالقرآن، أو بالنّبيّ، أو باللّه، وإمّا على تقدير متعلّقٍ عامٍّ، يدخلُ فيه كلُّ ما كفروا به، وهو الأولى؛ وذلك لدلالةِ عليه.

بلاغةُ التَّعريض بأسلوبِ الإيجاز:

التّلويحُ بالتَّهديدِ لأذكياءِ المشركين، كما أنَّ التَّصريحَ لأغبيائِهم

في الآيةِ إيجازٌ بديعٌ دلَّ عليه النَّظمُ الكريمُ، ففي قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ حذفٌ معذوقٌ بمصير المشركين، المرتبطِ بمصير السّابقين، وما أدلَّ نظمَ الكلامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 18.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 410.

على الوعيد بالإهلاك! أما ترى الإنكارَ في ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يقعُ في المحَزّ إلّا بتقدير: (ونحن علينا أن نُهلكَهم)[1]، وفي هذا الإيجازِ أيضًا تلويحٌ لمَن عَرفَ الحقَّ فعَلِم أنَّه على باطلٍ.

فنُّ التَّصدير:

تناسبَ طرفا الآيةِ، أوّلُها وآخرُها؛ فبدأت بنفيِ الإيمان عنِ الكفرة الهالكين، ثمّ خُتِمَت بسؤالٍ إنكاريٍّ يحملُ نفيَ إيمانِ كفّار قريشٍ، ولو رأوا الآياتِ التي يطلبونها ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فصدرُ الآية نفيٌ، وختامها نفيٌ، فهو تناسبٌ أسلوبيٌّ، كما أنَّ فيها تناسبًا في الألفاظ، فأوّلُها ذِكْر الإيمانِ المنفيِّ عنِ الأقوام، وفي ختامها الإيمانُ المنفيُّ عنِ المشركين، وهذا التَّناسبُ من فنِّ التّصدير.

تناسبُ المَطلِعِ مـعَ الـخـتـامِ في الأسـلـوبِ والألفاظِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأحلامُ والرُّؤى:

الرُّؤى إدراكاتٌ علَّقها اللّهُ تعالى في قلب العبدِ على يديْ مَلَكٍ أو شيطان، إمّا بأسمائها، أي: حقيقتِها، وإمّا بكُناها، أي: بعباراتِها، وإمّا تخليطٌ[2]، وبعضهم يرى أنَّ الرّؤيا غلبتِ على ما يُرى منَ الخير والشّيء الحسنِ، وغلبَ الحُلُمُ على ما يراه منَ الشّرِّ القبيح[3].

الأحـلامُ يغلبُ عليها التَّخاليطُ وتكونُ في الشَّرّ، وغالبُ الرُّؤى في الخير

الأوّلون والسّابقون:

بينَ الأوّل والسّابق عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ؛ فكلُّ أوّلٍ سابقٌ، وليس كلُّ سابق أوّلًا، فالسّابقُ قد يكونُ مسبوقًا بمَن قبلَه، لكنّ الأوّلَ هو مَن ليس بمسبوق، بل هو السّابقُ على الإطلاق، والأوّلُ يقابله الآخِرُ،

كـلُّ أوّلٍ سابقٌ وليس كلُّ سابقٍ أوّلًا

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 367.

(2) ابن العربيّ، عارضة الأحوذي شرح سنن التّرمذيّ: 9/ 127، والقاضي عياض، إكمال المُعْلم بفوائد مسلم: 6/ 69.

(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 434.

والسّابقُ يقابله اللّاحقُ أو المسبوق، وقدِ اجتمعا في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التّوبة: 100]، فالصّحابةُ سبقوا ولم يُسْبَقوا؛ لأنّهم الرّعيلُ الأوّلُ، والرُّوّادُ الأُوَلُ لأمّة الإسلام؛ لذا عَطَفَ عليهم مَن جاء بعدَهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التّوبة: 100].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»